حديثٌ عن الأهواء

الجزء الأوّل من سلسلة "الصلاة القلبيّة في عصر التكنولوجيا والتشتُّت"

الأب مكسيموس كونستاس[1]

هل ينبغي لنا أن نقرأ كتاب "الفيلوكاليا" إذا لم نكن قد قرأنا العهد الجديد بالكامل؟ هل وجدنا أنفسنا يومًا نعزف على "قيثارةٍ روحيّةٍ في الهواء"؟ وماذا يعني التقدُّم في الحياة الروحيّة؟

هذا المقال هو المحاضرة الافتتاحيّة لسلسلة: "الصلاة القلبيّة في عصر التكنولوجيا والتشتُّت"، والتي ألقاها الأب مكسيموس (كونستاس) في شباط ٢٠١٤ أمام كهنة أبرشيّة لوس أنجلوس التابعة لبطريركيّة أنطاكية وسائر المشرق في أميركا الشماليّة.

[...]

لي عظيم الشرف والامتياز أن أعمل مع شبّانٍ يستعدّون للكهنوت. قد يكون هذا العمل أهمَّ مهمّةٍ دُعيتُ إليها في حياتي، لأنّ ما أشاركهم إيّاه وأساعدُهم على فعله سيكون له تأثيرٌ على الناس الذين سيتعاملون معهم. فحياة الكاهن تؤثّر في المئات والآلاف، لذا آخذ هذا العمل بجدّيّةٍ تامّة. وبما أنّهم في عمر الشباب، فهُم لا يزالون في طَور التعلُّم، ويملكون أحيانًا أفكارًا غير صحيحة، وهو ما يضطرُّني أحيانًا إلى تعديل بعض مفاهيمهم، وأحيانًا أخرى إلى توبيخهم، مُقاربًا الأمر بأساليب مختلفة.

إحدى النواقص البشريّة الشائعة التي أراها لدى الكثيرين منهم هي توقُّهم لقراءة نصوصٍ مثل "الفيلوكاليا" أو كتاباتٍ متقدّمةٍ أخرى، فيما لا يكونون قد قرأوا العهدَ الجديد بالكامل بعد. يريدون أن يقتبلوا اختباراتٍ مستيكيّةً لله - يُصلّون بحرارة، يذهبون إلى الكنيسة، لكنّ عقولهم تشرد في الأوهام، ويرغبون في بلوغ أسمى

[1] أستاذ في العلوم الإنسانيّة في جامعة أوستن بولاية تكساس. شغل سابقًا منصب أستاذ اللاهوت في جامعة هارفارد، وأستاذ علم الآباء والروحانيّة الأرثوذكسيّة في كلية الصليب المقدّس اللاهوتيّة. سيمَ راهبًا في جبل آثوس حيث عاش سنواتٍ عديدة في دير سيمونوبترا. وله مؤلّفات عديدة تشمل الكتب والمقالات والترجمات. يتناول عمله لاهوت آباء الكنيسة، والتفسير الآبائيّ للكتاب المقدّس، وكتاب "الفيلوكاليا"، والروحانيّة الأرثوذكسيّة، وسيَر الشيوخ المعاصرين، والفنّ الكنسيّ والأيقونات.

الاختبارات المستيكيّة قبل أن يكونوا قد خاضوا أبسطَ أشكال الجهاد النُّسكيّ. أسأل بعضَهم: "هل تصومون يومَي الأربعاء والجمعة؟"، فيُجيبونني: "لا، لأنّهم يقدّمون الجبن في الكافتيريا وينتهي بي الأمر بأكله"، لكنّهم يرغبون في تلك الاختبارات المستيكيّة! إنّ الجبن والاختبارات المستيكيّة ليسوا بالضرورة غير متوافقين، ولكنْ للأمور ترتيبٌ صحيحٌ وطبيعيٌّ.

إنّها نزعةٌ بشريّةٌ أن نرغب في الأفضل والأعظم حين نراه، فيما ننسى أنّه علينا القيام بأعمالٍ أخرى تجعلنا مستعدّين لبلوغ ذلك المستوى. نظنُّ أنّنا مستعدُّون للمآثر العظيمة قبل أن نكون قد اهتممنا بصغائر الأمور التي تبدو لنا دون مستوانا. لا يمكننا النزول إليها لأنّنا "لاهوتيّون ومتعلّمون وطلّابٌ إكليريكيّون ومدعوّون من الله"، فلا يليق بنا إحراج أنفسنا علانيةً بفعل أمورٍ صغيرة - بل يجب أن نُرى ونحن نفعل العظائم. غير أنّ في هذا، طبعًا، نسيانٌ لقول الربّ في الإنجيل: "الأمين في القليل أمينٌ أيضًا في الكثير". والنصُّ اليونانيّ لهذه الآية مثيرٌ للاهتمام، لأنّ كلمة "القليل" جاءت في صيغة المفرد؛ أي "مَن كان أمينًا في أمرٍ صغيرٍ واحد"، هو أمينٌ في الكثير، باليونانيّة هنا "أشياء كثيرة". لا يظهر هذا المعنى دائمًا في الترجمات الإنكليزيّة القياسيّة؛ وأنا أفهم من ذلك أنّ الشخص الأمين في أمرٍ صغيرٍ واحدٍ سيكتسب بطريقةٍ ما مجموعةَ مهارات، أو انضباطًا، أو فكرًا (ethos). فالأمانة في أمرٍ صغيرٍ واحدٍ ستؤدّي حتمًا إلى الأمانة على نطاقٍ أوسع.

أظنُّ أحيانًا أنّه ما من وجودٍ لعظائم؛ توجد صغائر فقط، وإذا استطعنا الاهتمام بها، ستتبعُها العظائم تلقائيًّا. وأوضح مثلٍ على ذلك هو الصَّوم، الذي ليس صغيرًا تمامًا لكنّه أمرٌ واحد. إذا استطاع الإنسان أن يكون أمينًا في نظام الصَّوم، الذي يبدو بسيطًا نوعًا ما، واكتسبَ ذلك الانضباط، فلَكُم أن تتخيّلوا القدرة التي سيمتلكها في مجالاتٍ أخرى: القدرة على احتمال التجارب، ومنع أفكارٍ معيّنةٍ من دخول عقله، أو عدم الاستجابة لنزعاتٍ مثل الغضب أو الشهوة أو الكبرياء وما يشابهها. لا يمكننا البدء في خوض الجهاد ضدَّ هذه الخطايا والتجارب الكُبرى إذا لم نتمكّن من فعل ذلك على مستوى مجهريّ. أعتقد أنّكم إذا فعلتُم ذلك على مستوى مجهريّ، ستجدون أنّ الأمور الكبيرة لم تعُد تبدو كبيرةً أو قويّة، لأنّكم اكتسبتُم قوّةً في النفس، أو استقرارًا، أو انضباطًا في الشخصيّة يمكن تطبيقه على مجموعةٍ كاملةٍ من الخبرات أو الظواهر.

قد ترغبون في عزف البيانو مثل شوبان أو بيتهوفن، وهذه رغبةٌ صالحةٌ في جلب الجمال إلى العالم. فالموسيقى هبةٌ من الله. اقرأوا عظة القدّيس باسيليوس الأولى عن المزامير، والتي تحتوي على مقطعٍ جميلٍ ومعروفٍ حول الأساس اللاهوتيّ للموسيقى التي يقول إنّها موهبةٌ أعطاها الروحُ القدس للكنيسة. لكن لتعزفوا مثلهما، عليكُم أوّلًا أن تقضوا وقتًا طويلًا في التمرُّن على السلالم الموسيقيّة. إنَّ التمنّي أو الرغبة لا يكفيان وحدهما. لا يمكنكم الجلوس والعزف كالبارعين لمجرّد أنّكم ترغبون في ذلك؛ فالأمر يتطلّب الكثير من العمل الشاقّ. تسمعون الناس اليوم يقولون إنّه لا يوجد شيءٌ اسمه "عبقريّة فطريّة"، فكلُّ شيءٍ يمكن قياسه، ويقولون إنّ الأمر يتطلّب عشرة آلاف ساعة ليصبح المرء بارعًا في مجالٍ معيّن. ليس في الموضوع سرٌّ؛ يكمن الأمرُ، ببساطةٍ، في العمل الشاقّ. بالطبع، يوجد أشخاصٌ أذكى من غيرهم، لكن بعشرة آلاف ساعة عمل، أعتقد أنّه يمكن لأيّ شخصٍ أن يبرع في أيّ شيء.

إذا لم نتدرّب، ولم نتمرّن على سلالِمنا الموسيقيّة في العالمَين المادّيّ والروحيّ، سينتهي بنا الأمر ونحن نعزف في العالم الروحيّ على ما يشبه قيثارةً في الهواء. ليس من السهل البدء بتعلُّم العزف على قيثارةٍ حقيقيّة؛ فهو يؤلم أصابعكم في البداية، وعليكم أن تصبروا حتّى يتصلّب جِلدُها، وهذا يستغرق وقتًا. لذا تفكّرون قائلين: "ليس لديّ وقتٌ لذلك، لكنّني سأقفُ أمام المرآة وأعزف على قيثارةٍ في الهواء". هذا نوعٌ من الوهم. أو قد نظنُّ أنّنا نُصارع الله، بينما نحن في الحقيقة نُلاكِمُ الظلّ. نحن لا نريد أن نكون عازفي قيثارةٍ في الهواء أو مُلاكمي ظلّ، بل نريد أن نكون فنّانين وموسيقيّين ومُبدعين روحيّين، أي أشخاصًا لا يكتفون بإصدار موسيقى جميلة، بل تكون حياتُهم نفسُها موسيقى جميلةً بسبب الانضباط والعمل الذي قاموا به. من المهمّ القيام بالأشياء في ترتيبها الصحيح والطبيعيّ. والصحيح هو الطبيعيّ. عندما تبنون بيتًا، تبنون الأساس قبل أن تضعوا السَّقف، لكنّ طلابي يريدون وضع السَّقف قبل وضع الأساس؛ وبالطبع، هذه خطّةٌ غريبة.

مذهلةٌ حقًّا هي أقوال آباء الصحراء، فمع أنّها من أقدم النصوص الأدبيّة المسيحيّة، تبدو معاصرةً وحديثةً ومناسِبة، وأحد أسباب ذلك هو أنّ فِكرها يقتصر فقط على مبادئ الصحراء وبساطتها. ثمّة قصّةٌ عن الأنبا بيمن، وهو أحد أبرز آباء الصحراء. يبدو أنّ علمانيًّا من مدينةٍ قريبةٍ سمع عن هذا الأب العظيم وأراد مقابلته، فحزمَ أمتعته وارتحلَ عبر الصحراء إلى الجبال حيث يعيش الأنبا بيمن. طرقَ الباب فدعاهُ الأنبا بيمن إلى

الدخول. جلسا وقدّم له الأب بعض الطعام، وتحمّس الرجل فورًا، وأخذ يتحدّث عن ملكوت السموات. ما إن سمع الأنبا بيمن هذا حتّى انصرفَ عنه وأدار له ظهره. أدرك الرجل أنّ الأمور لا تسير في الاتّجاه الصحيح، فقام وجمعَ أغراضه وعاد إلى الجبل.

ولكن، بينما كان يشقُّ طريقه في الصحراء، بدأت أفكاره تعتمل في داخله: "لقد قطعتُ هذه المسافة كلَّها لأرى هذا الرجل، وتوقّعتُ أن يرحّب بي، وكنتُ أريد التحدُّث عن ملكوت السموات، فما هذا التعامُل؟!". بدأ يغضب، فاستدار وقرّر العودة لمواجهة الأنبا بيمن ومطالبته بتفسير. نظر الأنبا بيمن في عينيه مباشرةً، وقال له: "إذا جئتَ إلى هنا لنتحدّث عن ملكوت السموات، فليسَ لديّ ما أقوله لكَ، أمّا إذا جئتَ لنتحدّث عن الأهواء، فاجلسْ وافتحْ قلبكَ وسأملؤه بكلّ أنواع الصلاح".

أراد الرجل الحديثَ عن الملكوت، لكنّنا نحتاج إلى الحديث عن الأهواء أوّلًا، لأنّها هي ما دخلَ إلى وجودنا عندما خسرنا ملكوت السموات. كيف نتحدّث عن الملكوت من دون معالجة الحالة الواقعيّة التي نحن فيها؟ نريد التحدُّث عن النور ونحن ممتلئون ظُلمة. نريد الانتقال إلى الرياضيّات العليا -قراءة الفيلوكاليا والاختبارات المستيكيّة- قبل أن نقرأ العهد الجديد أو نلتزم بانضباطٍ مسيحيٍّ أساسيّ، أو قبل أن تتوفّر لدينا الشجاعة لمواجهة ظلمة الأهواء في داخلنا. إنّ لفظة "passions" (أهواء) إشكاليّةٌ لأنّها لم تعُد تعني الكثير في لغتنا اليوم -فلدينا شغفٌ (Passion) بالغولف أو السياسة- لكنّ الكلمة الأفضل هي "الإدمان" (Addiction) -أي التعلُّقات العاطفيّة القويّة، سواءٌ بالأشياء المادّيّة أم بالأفكار والصُّور، مثل فكرتي عن ذاتي. وتمامًا كما الحال مع الطعام، لا حدود للأشياء التي قد يُدمن عليها الناس، أو المواضع التي قد يعلقون فيها خلال مسيرة تطوُّرهم. إنّها كلمةٌ قويّةٌ وقاسية، لكنّها الكلمة الأفضل وتتّسق مع فكر الآباء.

إنّ الجذر الروحيّ لكلّ أنواع الإدمان هو هذه الحالة الأهوائيّة التي نعيشها جميعًا. تركيزنا هنا هو على اليقظة الداخليّة، لا على التشتُّت أو التركيز على الأشياء التي هي خارج أنفسنا، بل على الانعطاف نحو الداخل لاكتشاف نعمة الروح القدس الممنوحة لنا بالمعموديّة. عندما نسحب استثمارنا العاطفيّ من العالم، ونُعيد توجيه انتباهنا نحو الداخل، سنجِدُ في أعماق أجسادنا وكينونتنا، بالإضافة إلى حضور الله، أكثر الأشياء ظلمةً. وربّما يكون وجودُها هو ما يمنعنا من النظر إلى الداخل، لأنّه ثمّة فوضى في هذا الوجود الذي كان

يتقيّح فينا منذ مدّةٍ طويلة، ونحن في حالةِ إنكارٍ ولا نريد التعامل معه. لذا، فإنّ التركيز على "الفيلوكاليا" لا يتعلّق فقط بصلاة يسوع، على الرغم من مركزيّتها، لأنّ أمورًا أخرى ترافقها، وأهمّها إدراك الأهواء والإقرار بوجودها والجهاد ضدّها. لن أقول "الانتصار" على الأهواء لأنّنا لا نستطيع فعل ذلك. يقول الشيخ إميليانوس (رئيس دير سيمونوبترا السابق) إنَّه عندما تكون مقيَّدًا (أي في حالة الإدمان والوقوع تحت سيطرة الأهواء)، لا يمكنك فكّ قيودكَ بنفسك. يجب أن يأتي آخر ويفكّ تلك السلاسل والأقفال؛ وبالطبع، هذا الآخر هو نعمة الله. ما يخصُّنا نحن هو أن نكتشف أوّلًا الظلمة في داخلنا، وهو أمرٌ تصعب جدًّا رؤيته.

إنّ النموّ في حياة الفضيلة ليس شعوركم المتزايد بالرضا عن أنفسكم، أو ظنّكم أنّكم تزدادون فضيلة؛ بل كلّما تقدّم المرء روحيًّا، سمح له الله برؤية المزيد من ظلمته الداخليّة، لأنّ رؤيتها صعبةٌ جدًّا، ولن يسمح لكم الله برؤيتها إذا كان يعلم أنّكم لا تستطيعون تحمُّل ذلك. رؤية ذلك ساحقةٌ ومُحطِّمة، لكنّها أيضًا تُواضِعُكُم، والله يمنح نعمته للمتواضعين. هذا الاعتراف بعجزنا وضعفنا هو ما يجذب نعمة الله إلينا. لا يمكن أن يوجد لقاءٌ حقيقيٌّ مع قداسة الله لا يؤدّي في الوقت عينه إلى كشفِ عدم قداستي.

بالنسبة لي، الصورة الكتابيّة العظيمة لهذا هي عندما التقى القدّيس بطرس بالربّ بعد انتهاء الصيّادين من الصَّيد فارغي الأيدي، فطلب منه الربُّ أن يحاول ثانية. بالطبع، يعرف بطرس مهنته لأنّه صيّاد، فكيف يأتي نجّارٌ ليُملي عليه ما يفعل؟ غير أنّ بطرس لم يعترض. غالبًا ما نكون حسّاسين تجاه مجالات اختصاصنا، ولا نحبُّ أن يُملي علينا الآخرون ما يجب فعله. وبطرس هو صيّادٌ محترفٌ، لكنّه ذهب وألقى الشِّباك ثانيةً، فامتلأت، فأدرك أنّ يسوع هذا، كائنًا مَن كان، ليس مجرّد شخصٍ عاديّ. وماذا فعل؟ التفتَ نحو يسوع، ومع أنّنا اعتدنا هذا المشهد من كثرة سماعنا للإنجيل، فقد كانت استجابته مُذهلةً حقًّا: جثا على ركبتَيه أمام الربّ وقال له: "اخرجْ من سفينتي يا ربّ، لأنّي رجلٌ خاطئ". ها هو الأمر. إعلان قداسة يسوع، أي الله، كان حقيقيًّا لبطرس لأنّه جاء مقترنًا بوعيه لعدم قداسته هو. وليس هذا تقليلًا من شأن بطرس أو إهانةً له، وهو لم يتحطَّم نفسيًّا؛ هذا جرحٌ مُخلِّص. إنّه اختبارُ انسحاقٍ سمح له بمعرفة نفسه، وفي الوقت عينه، أعلن له ملء حضور يسوع.

يقول القدّيس مكسيموس المعترف، في تلاعُبٍ لفظيٍّ باليونانيّة: "إنّ الحديث (logos) عن الأهواء، هو انحدارٌ إلى الهاوية مع الكلمة (Logos)". قد يبدأ شخصٌ "لوغوس" (حديثًا) عن "اللوغوس" (الكلمة)، "لا ليبقى هناك، بل ليكسِرَ قيود تعلُّقات النفس بالعالم، وهكذا يقوم مع الكلمة". وهذا يتّفق تمامًا مع تعليم الأنبا بيمن بأنّنا بحاجةٍ إلى الغوص عميقًا في الحديث عن الأهواء، لا لنمكث فيها ونتّخذ منها مسكنًا، بل لنقوم من ذلك العُمق، ويقيمنا كلمةُ الله ويحيينا.

نقلتها إلى العربيّة أسرة التراث الأرثوذكسيّ

Source: Fr. Maximos Constas (2016). "Discoursing on the Passions", in *Prayer of the Heart in an Age of Technology and Distraction*. Published by *Patristic Nectar Publications,* accessed at *OrthoChristian.com*.

رسالة ميلاديّة من القدّيس أمبروسيوس (أوبتينا)

لمناسبة ميلاد عام 1870، كتب الشيخ لأبنائه الروحيّين حول المعنى السامي للتجسُّد الإلهيّ

"يا طالبي الحِكمة في الربّ! برحمة الله وطول أناته، نَصِلُ مرّةً أخرى إلى الزمن السنويّ لعيد ميلاد المسيح.

وبدلاً من المعايدات البسيطة المعتادة، أودُّ أن أقول لكم بضع كلماتٍ عن السرّ العظيم لهذا العيد المجيد. تدعو الكنيسة، في ترانيمها، المؤمنين إلى التأمُّل بذهنٍ سامٍ في مجيء السيّد، وإلى الابتهاج سرّيًّا، بقلوبٍ نقيّة، في مأدبةٍ غير مائتةٍ داخل المغارة الوضيعة. فالحاضر في كلِّ مكانٍ قد طأطأ السموات ونزلَ إلى الأرض من دون أن يغادر حضنَ الآب؛ غير المنظور صار منظورًا؛ كلمة الله وابنه المساوي له في الأزليّة وعدم الابتداء صار ابنًا للعذراء؛ الذي قبل الدهور وغير المدرَك يُولَدُ الآن من العذراء طفلًا؛ مَن لا يُدنى منه تحتضنه الآن طفلًا ذراعا أمٍّ عذراء؛ الذي يوشِّحُ السماء بالغيوم يُلَفُّ الآن بالأقمطة كطفلٍ؛ الذي خلقَ كلَّ شيءٍ بحكمة، يُوضَعُ الآن طفلًا مقمَّطًا في مذودٍ لبهائم غير عاقلة، ليُخلّص البشر من عدم التعقُّل؛ الذي يغذّي الكلّ يَرضعُ الآن طفلًا لبنَ أمّه.

يا له من سرٍّ رهيب! يا لها من أمورٍ تفوق الإدراك! كيف صار الله إنسانًا من دون أن يطرأ عليه تغيير، وهو يجعل الإنسانَ إلهًا، كما تنبّأ النبيّ: «أنا قلتُ إنّكم آلهةٌ وبنو العليّ كلُّكم» (مزمور 81: 6). ولكن، يا لإثميّتنا! فنحن، كبشرٍ، نموت. يا لبُطلاننا وتجاهُلنا للبنوّة الإلهيّة! إنّنا نحبُّ عبوديّتنا للأهواء ومشيئتنا الشرّيرة، ونحني أعناقنا طوعًا وكرهًا لنير العدوّ. يا لَعمانا وظلمتنا!

عندما سمعَتْ آذانُ الرُّعاة المبارَكة الملائكةَ يُرتّلون: «المجدُ لله في الأعالي» (لوقا 2: 14)، حملَتْ بشارةَ السلام إلى الأرض والمسرّة إلى الناس. وذُهِلَتْ أعيُنهم حين عاينَت الحملَ البريء من العيب الذي خرج من أحشاء مريم. طوبى لجميع الذين يحفظون مشيئة الله وسلامه الذي يفوق العقول البشريّة.

جاء المجوس المبارَكون والحُكماء من بلادٍ بعيدةٍ ليَسجدوا للمولود من العذراء، مُقدِّمين له هدايا لائقة: ذهبًا لأنّه الملك، وبخورًا لأنّه الله، ومُرًّا لأنّه الذي يموت وهو غير مائت. طوبى لكلّ الذين يسجدون له باستحقاقٍ بالروح والحقّ، مُقدِّمين له قرابين بحسب قدرتهم: كذهبٍ، قليلًا من أعمال الرحمة والبرّ؛ وكبخورٍ ولُبانٍ ذكيّ الرائحة، التسابيح والصلوات النقيّة، صلوات التوبة والاعتراف؛ وكمُرٍّ عَطِر، تذكُّر آلامه بشُكرانٍ، وإكرام جروحه المُحيية بتوقير، هو الذي تجسّدَ وصُلِبَ بالجسد من أجل خلاصنا.

أمّا نحن المتوانون والمتبلّدو المشاعر، وأنا أوّلُكم، فلا نستطيع أن نرفع عقولنا فوق الأرض، وأن نبتهج بقلوبٍ نقيّةٍ بالوليمة غير المائتة في المغارة الوضيعة. وإذ نتواضع ونوبّخ أنفسَنا، ليتنا ننتبه بحرارةٍ وورعٍ إلى القراءات والترانيم في الكنيسة، ونرتشف التعزية والاستنارة والخلاص كما من ينبوع الحياة والخلود، وذلك من خلال رحمة وتحنُّن ذاك الذي تجسَّدَ من أجلنا، ابن الله، الذي له المجد والكرامة والسُّجود، مع أبيه الذي لا بداءة له، وروحه القدُّوس الصالح والمحيي، الآن وكلّ أوانٍ وإلى دهر الداهرين. آمين.

يا من وُلِدتَ من العذراء بصورةٍ لا يُنطَق بها، ارحمنا نحن الذين قد فترَتْ قلوبُنا، بصلوات أمّك الكلّيّة الطهارة وجميع الذين أرضوك!".

نقلتها إلى العربيّة أسرة التراث الأرثوذكسيّ

Source: Saint Ambrose of Optina (1870). “Christmas Letter”, from Fr. Sergius Chetverikov, *Elder Ambrose of Optina*, Published by St. Herman of Alaska Brotherhood, 1997, 188-9. In *OrthoChristian*.

كلّ واحدٍ منّا هو مشروع قدّيس

المتروبوليت نيقولاوس أسقف ميسوغيا ولافريوتيكي[1]

كلّ واحدٍ منّا هو مشروع قدّيس، حتّى وإن كنّا لا نؤمن بذلك الآن! يَعتبِر المتروبوليت نيقولاوس (خادزينيكولاو)، مطران ميسوغيا ولافريوتيكي، وهو أسقفٌ من الكنيسة الأرثوذكسيّة اليونانيّة، أنّ "عدم الإيمان" هو أثمن خبرةٍ في الحياة الروحيّة.

"لم أكن بحاجةٍ إلى قصصٍ وحججٍ من أحدٍ عن المسيح؛ كنتُ أبحث عن اختبار حضوره"

س: يا سيّدنا نيقولاوس، لماذا يحمل "عدم الإيمان" معنًى وقيمةً بالنسبة إليك؟ بصراحة، إنّه لأمرٌ غير مألوفٍ أن نسمع هذا من متروبوليت...

ج: لأنّ الربّ يكشف عن نفسه فقط لأولئك الذين يشكّون بصدقٍ في وجوده. أنا شككتُ. عندما كنتُ في السابعة عشرة، قلتُ بصراحة: "أنا مُلحِد".

س: هل استمرّ ذلك طويلاً؟

ج: حتّى بلغتُ الثانية والعشرين تقريبًا. ما زلتُ أعتقد أنّه من الأفضل لكم أن تشكّوا بتواضعٍ وأنتم عند سياج الكنيسة، بدلاً من التباهي بكونكم داخل السياج [بينما أنتم غير مؤمنين فعليًّا]. إنّ أفضل معلميَّ في الإيمان لم يكونوا اللّاهوتيّين "المحنَّكين" أو رجال الدين بالوراثة، بل أولئك الذين خاضوا "مرحلة ابتداءٍ" في عدم الإيمان.

[1] هو متروبوليت أبرشية ميسوغيا ولافريوتيكي اليونانية منذ العام 2004. درس الفيزياء في اليونان ثمّ الفيزياء الفلكيّة في جامعة هارفارد ومعهد MIT، وعمل باحثًا في وكالة الناسا. ثمّ درس اللاهوت وترهّب، والتحق بدير سيمونوبترا في جبل آثوس الذي أرسله ليخدم في أمطش الدير في ضواحي أثينا، قبل أن يُنتخب مطرانًا. أسّس المركز اليونانيّ لأخلاقيات علوم الحياة ونال دكتوراه في اللاهوت في هذا الاختصاص، ويشغل منذ العام 1998 منصب رئيس لجنة مجمع كنيسة اليونان لشؤون أخلاقيات علوم الحياة.

س: من الغريب سماع هذا من شخصٍ يونانيّ، فالأمر يشبه ما حصلَ في التاريخ الروسيّ الحديث.

ج: تدرك اليونان حقًّا أنّها تعيش ضمن التقليد المستمرّ منذ ألفَي عام، أمّا عندكم [أي الروس] فكلُّ شيءٍ يولَدُ من جديدٍ حقًّا! وهذا يفسّر اللَّون والنضارة الفائقَي الوصف في حياة الكنيسة لديكم. إنّها ثورةٌ للروح! إنّه أمرٌ فريدٌ في تاريخ البشريّة وذو دلالةٍ للأرثوذكسيّة في جميع أنحاء العالم، لأنّ إيماننا ليس من هذا العالم. ولهذا السبب، لم أرغب في الإيمان في شبابي لمجرّد أنّه "يجب عليَّ ذلك". لم أكن بحاجةٍ إلى قصصٍ وحُججٍ من أحدٍ عن المسيح، كنتُ أبحث عن اختبار حضوره. غير أنّه لم يأتِ. واعترفتُ قائلًا: "أنا لا أعرف شيئاً عنه". الإله الحقيقيّ هو الذي يستحيل العيش من دونه. والكنيسة تحيا به لأنّه ليس مجرّد مجموعة آراءٍ لأناسٍ معيّنين عنه؛ بل هو الحياة نفسها.

بما أنّكما فيزيائيّان... الدروس الأولى في آثوس

س: حتّى القدّيس باييسيوس الآثوسيّ مرَّ بحالةٍ من عدم الإيمان في مراهقته. هل التقيتَ بالشيخ باييسيوس بينما كنتَ لا تزال غير مؤمن؟

ج: نعم، ولم أفهمه. أستطيع القول إنّني كنتُ خائفًا. كان من الواضح أنّه قادرٌ على كشف حياتي أمامي، شعرتُ بذلك لكنّني لم أستسلم. حاولتُ الخروج من تحت تأثيره. فكّرتُ في نفسي قائلًا: دعهُ يتدرّب على آخرين.

في أوّل زيارةٍ لي مع أخي إلى قلّايته، أتذكّر أنّه سألنا: "ماذا تعملان أيّها الشابّان؟". أجبناه: "نحن فيزيائيّان". فقال: "اسمعا! بما أنّكما فيزيائيّان، عليكما تحقيق الأمر الأساسيّ، وهو تفكيك ذرّة الأنا لديكما. حينها، ستنطلق طاقةٌ خفيّةٌ تُمكّنكُما من الإفلات من جاذبيّة الأرض واحتضان الشمس العقليّة، التي هي المسيح".

أعجبني جدًّا كيف فتحَ لنا آفاقًا روحيّةً باستخدام لغة العلم المألوفة لنا. وبمرور الوقت، أصبحت هذه الآفاق بالنسبة لي أكثر إثارةً للاهتمام حتّى من الأعماق الكونيّة.

في زيارتنا الأولى للشيخ، سمعتُ كيف سأل طالبٌ ثانويٌّ بركته ليصبح مبتدئًا، فمازحَهُ الشيخ قائلًا: "هل أنهيتَ الجامعة؟!". وعندما أجابه الطالبُ بحزنٍ أنَّه لا يزال في المدرسة الثانويّة، قال له الشيخ: "أنا لا أقبل إلّا مَن يحملون شهادةً جامعيّة!". أتذكّر ذلك...

هل تعلم بماذا جعلنا القدّيس مهتمَّين أيضًا في زيارتنا الأولى؟ قال: "لا أعرف ما العلوم التي تدرسانها هناك في جامعتيكما، لكن إذا جئتُما إلى هنا، إلى الجبل المقدَّس آثوس، فافهما أنّنا هنا ندرس علمًا طبيعيًّا واحدًا فحسب: القداسة. إذا أحبَّ شخصٌ الله فوق كلِّ شيء، يشعر بأنّ بشرته تلين، ويذوب كلُّه مثل الشمع، إذ يتلقّى نارَ برَكة الله. وهكذا تتحرّر النفسُ البشريّة...".

لم أفهم الأمر في ذلك الوقت... لكنّ الشيخ تابع قائلًا:

"ثمّة رجل" (وأعتقد أنّه كان يتحدّث عن نفسه)، "ينتقل أحيانًا إلى أماكن أخرى على الكوكب". هل تتخيّل كيف كان وقعُ سماع هذا على فيزيائيَّين؟! "في أثناء صلاته هنا، في آثوس، خطفَهُ الربُّ وحملَه إلى منطقة بحر قزوين... وأعطاه تكليفًا. عندما أتمّه، أعاده الله. كيف يمكن لذلك أن يحدث؟ وما الدليل على أنّه قد حدثَ فعلًا؟ عندما عاد إلى قلّايته، رأى فجأةً في يده زهرةً لا تنمو إلّا في منطقة قزوين...".

لم أصدّقه حينها. كنتُ أرى كلَّ شيءٍ بعقلانيّةٍ مفرطةٍ في ذلك الوقت. ما زلتُ لا أعرف إلى أيِّ مدىً تمكّنتُ من تفكيك ذرّة "الأنا" لديّ؛ ولكن، على الأقلّ، ليست لديّ الآن مشكلةٌ في استيعابِ قصصٍ كهذه.

"لا تعود تسأل: هل الله موجود؟ فأنتَ تراه!"

س: وبعد ذلك، تمكّنتَ أيضًا من العيش بجوار الشيخ باييسيوس؟

ج: نعم، ساعدَتْني شهادتي الجامعيّة [يضحك]. ذهبتُ وأريتَهُ شهادتي وذكّرتُه بكلامه... إلّا أنّه، عمومًا، لم يكن يضمُّ إليه أحدًا.

سأخبرك، ثمّة فرقٌ بين أن تسمع أمرًا عن قدّيس، وأن تقرأ عن أعماله، وأن تلتقي بقدّيس، وأن تعيش مع قدّيس. عندما تجد نفسكَ قرب شخصٍ كهذا، مثل الشيخ باييسيوس، تتيّقن بأنّ الربَّ حيّ. إنّه حقيقيٌّ وأنتَ تتواصل معه. لا تعود تسأل: هل الله موجود؟ فأنتَ تراه!

س: أي أنّ المعرفة في الكنيسة هي دائمًا اختبار؟ وهل هذا بالتحديد هو الفرق بين الإيمان والمعرفة العلميّة؟

ج: تُوسِّعُ قوّةُ الإيمان وعيَكَ إلى ما هو أبعد من العقلانيّة التي تُلازِم هذا الوعي. الله أكبر من مفاهيمنا عنه. أولئك الذين يبحثون عنه بعقلهم لن يجدوه، لأنّ إلهًا كهذا غير موجود. لا يوجد إلهٌ يمكن استنتاجه من معادلة (equation) الحياة وإثباته منطقيًّا. يولَدُ الإله الحقيقيّ في القلب في خبرة الإيمان، وهكذا يجري التغلُّب على الموت.

أنا حقًّا أحسد، بطريقةٍ حسَنة، أولئك الشباب الذين دخلوا الدَّير قبل أن يتسمَّموا بالشكّ والبراغماتيّة والعقلانيّة. فأذهانهم (Nouses) لم تسقط إلى الأرض. وإلّا، فإنَّ عقلًا مثل عقل هؤلاء سيُعيق البحثَ عن الله. من المستحيل إدراك الله بعقلٍ كهذا.

يستطيع الله أن يكشف عن نفسه. وهو يفعل ذلك فقط إذا تواضعتَ، معترفًا بأنّ عقلكَ لا شيء. وعندها، بعد أن تكون قد اختبرتَ الله بالفعل، يمكنك أن تلجأ إلى عقلك لتُخبر الآخرين شيئًا عن الخالق. ولكن ليس أكثر ممّا كشفه الله نفسُه لكَ عن نفسِه.

في الحياة الأكاديميّة، نحاول أن نفهم شيئًا وأن نكتشفه بأيّ ثمن. إلّا أنّ حياتنا الروحيّة تكشف لنا أنّ بعض الأشياء يستحيل فهمُها من حيث المبدأ.

التواضع هو الجوهر كلُّه!

س: هل هكذا يتواضع الإنسان؟

ج: التواضع هو الألف والياء في الطريق الروحيّ. لأنّ: "الله يقاوم المستكبِرين، وأمّا المتواضعون فيُعطيهم نعمة" (1 بطرس 5: 5). كان القدّيس العظيم غريغوريوس بالاماس يُصلّي باستمرارٍ قائلًا: "يا ربُّ، أنِرْ ظلمتي". التواضع - فيه يكمن الجوهر كلُّه!

لا ينطبق هذا على الحياة الروحيّة فحسب، بل على الحياة الأكاديميّة أيضًا. تساعدنا مهاراتُ البحث العلميّ النزيه على أن نرى الله كما عبر شخصٍ وعبر الكون المرئيّ، وعلى أن نتواضع. عندما يَصِلُ الأكاديميّ، في بحثه العلميّ، إلى ألغازِ الوجود غير المحلولة، يتوقّف إذ يشعر بعجزه عن معرفة أيّ أمرٍ إضافيّ. حينها يبدأ القيام بعمله بتواضع. هذا هو "التواضع"، المغزى الكامل للعلم الحقيقيّ.

س: إذًا لماذا، بعد أن اكتشفتَ أعظم اكتشافاتك، لم تستمرّ في القيام بعملكَ بتواضع، بل أصبحتَ راهبًا؟

ج: عندما تسنح لكَ الفرصة للطيران إلى السماء، لا تُطيقُ أن تتجوّلَ على الأرض.

س: سيّدنا نيقولاوس، ماذا يجب أن يفعل أولئك الذين لم يختبروا بعد مثلَ هذا التحليق الروحيّ؟

ج: أن يُصلّوا. إذا كنّا لا نُلاحظ المعجزات، فنحن لا نراها لأنّنا لا نعرف كيف نُصلّي. إذا أردنا أن نرى معجزاتٍ عظيمة، يجب أن نصبح أشخاصًا يُجيدون الصلاة.

في الصلاة، يتّحد قلبُنا بالمسيح

س: كيف يمكننا أن نتعلّم الصلاة؟

ج: يحاول هذا العالم بشتّى الطرائق أن يصرفنا عن الصلاة، إذ يحشو عقولَنا بمختلف المعارف والمعلومات التي يَفترض أنّها ضروريّة. في الواقع، يمكن أن تكون للجهل قيمةٌ تُضاهي خبرة عدم الإيمان. أفرِغْ قلبكَ من كلّ قلق. تعلّمْ تقليل الانتباه لما يُشتّت. قال القدّيس إسحق السريانيّ إنّه في الصلاة تُماتُ جميع الحواسُّ الخارجيّة، بينما تستيقظ الحواسُّ الداخليّة. أحيانًا، يشبه الأمرُ قيامةَ لعازر الرباعيّ الأيّام: "هلمَّ خارجًا!"، في الصلاة تسمع النفسُ صوتَ المخلِّص وتخرج من الإطار الفاني الذي لهذا العالم.

قد تقول: "هذا صعبٌ على الأرجح". أجيبكَ: "صعبٌ، لكنّه ضروريّ. وهو ليس مستحيلاً". علينا أن نبدأ بالأمور الصغيرة: قد لا تقرأ صلوات الصباح كلّها في بادئ الأمر، لكن علينا أن نُصلّي ولو قليلًا.

س: على العكس، غالبًا ما يرغب المبتدئون في القيام بجهاداتٍ عظيمةٍ فورًا.

ج: إنّها لَمشكلةٌ إذا ما وُجِدت مثلُ هذه الرغبة. حتّى السائقون يعرفون أنّنا لا نستطيع الانطلاق بالسرعة الخامسة، بل بالأولى.

س: هل لديكَ توصيةٌ حول الطريقة الأفضل للبدء في تعلُّم الصلاة: هل بالاجتهاد في صلاة البيت أم في صلاة الكنيسة؟

ج: هما أمران مختلفان: عندما نُصلّي في الكنيسة، نصعد إلى محطّةٍ مداريّة، ونتحرّك في مسارٍ تحقّقَ منه الآباء القدّيسون. وعندما نُصلّي في الخلوة، ننشئ وسيلةَ النقل الخاصّة بنا وننطلق في رحلة! كلاهما مهمٌّ. عشر دقائق، هل هذا كثير؟ خمس دقائق؟ فقط، فليكُن ذلك من كلّ قلبك! عليكَ فقط أن تهدأ، وأن تفصل نفسكَ عن بُطلان اليوم الماضي أو القادم، وأن تُصلّي من كلّ قلبك!

س: وإذا كانت الصلاة تُقالُ بشكلٍ آليّ، فلا جدوى من قانونٍ صباحيّ أو مسائيّ كهذا، أليس كذلك؟

ج: بلى، عليكَ أن تقرأ تلك الصلوات على كلِّ حال. حتّى ولو آليًّا. بالطبع، نحن بحاجةٍ عمومًا إلى أن نُصلّي على نحوٍ صحيح. سيكون ذلك أفضل! لكن لا ينبغي لكَ أن تأكل في المطاعم فقط، بل عليكَ أيضًا أن تطبخ بنفسكَ أحيانًا. هل تفهم؟ هذا أيضًا يُعلّم التواضع. وبعد ذلك، نحتاج إلى أن نتذكّر باستمرارٍ أنّ ثمّة فرقًا كبيرًا بين ما يُسمّى "قراءة الصلوات" و"الصلاة". الصلاة هي عندما يبدأ قلبكَ بالتحرُّك في اتّجاهٍ معيّنٍ تُحدّده وصايا الإنجيل، ويتّحد بالمسيح. يجب أن نتعلّم الثقة بالله.

منذ مدّةٍ قصيرة، وقفنا أمام الإبيتافيون... لم يُصلَب الربُّ من أجلنا لكي نتعفّن في همومٍ كثيرةٍ فيما نحن أحياءٌ. لا ينتهي الفصح بأيّام أسبوع التجديدات.

مبادئ الحياة لمَن يسعون للقداسة

س: سيّدنا نيقولاوس، شارِكنا من فضلكَ بعضَ أسرار إتقان علم القداسة.

ج: سأذكر أربع كلماتٍ يونانيّة هي المبادئ الأساسيّة للحياة بالنسبة إلى الراهب الآثوسيّ الهدوئيّ، ولأيّ شخصٍ يسعى للقداسة.

"Ανάτασις" الصعود! لنرفعْ قلوبَنا! تمتلك نفسُنا إمكانيّة الوصول إلى علوٍّ لا يمكن تصوُّره. والإنسان الذي شعر اختباريًّا بأنّ هذا حقيقيٌّ يشبه الملائكة أكثر ممّا يشبه البشر. تتوافق حالتُه أكثر مع الوجود في ملكوت السموات، ولا تُقارَنُ بالحالة التي يعيش فيها بقيّة الناس على الأرض. لا يعود بحاجةٍ إلى الدفاع عن الله والكنيسة في النقاشات؛ فالناس مِن حوله لا يعود لديهم أيّة أسئلة. هذا لأنّ نفسَهُ قد ارتفعت عاليًا جدًّا. هذا جزءٌ من قدراتِ نفوسنا!

"Έκστασις" الخروج من الذات. في أفعالنا كلِّها، يجب أن يوجد حافزٌ لتخطّي الحدود المعتادة. نحن نفعل كلَّ شيءٍ من أجل الله! ففي النهاية، هل هناك أيُّ شيءٍ أهمّ من الله؟! نحن نثِقُ بمنطقنا، وبعِلمنا، وبالأخبار التي نسمعها بين الحين والآخر، فلماذا لا نستطيع أن نثق بالله؟! إنّه دائمًا أبعد من حدود الطبيعة البشريّة الساقطة. هذا لا يعني أنّ جوهر الإنسان يجري تجاوزه (إلغاؤه)، لكنّنا مدعوّون إلى الخروج من حدود عاداتنا، وأهوائنا، وخطايانا.

لكي يحدث هذا، يتطلّب الأمر **"έντασις" جهدًا داخليًّا**، يأتي من خبرة الجهاد النُّسكيّ. يجب أن نجاهد نُسكيًّا بمثابرة. "ملكوت السماوات يُغصَب، والغاصبون يختطفونه" (متّى 11: 12).

وهذا الجهد ينتهي **بالامتداد "έκτασις"**، أي تمدُّد الطبيعة البشريّة إلى ما هو أبعد من قدراتها.

نحن أنفسنا لا نعرف ما يخفى في داخلنا

ثمّة إمكاناتٌ غير محدودةٍ مخبّأةٌ داخل كلّ واحدٍ منّا، إنّها نائمّة فقط. "اسهروا وصلُّوا" (متّى 26: 41)، كما أوصانا الإنجيل. تسمح لنا جامعةُ الكنيسة باكتشاف هذه الإمكانات. وعندما نُحرّرها، يمكن لنفوسنا أن

تكون في معيّةٍ دائمةٍ مع الله. هذا ما تحدّثَ عنه الشيخ باييسيوس في لقائنا الأوّل، لكنّني لم أستطع فهمه حينها...

ولكن، في الواقع، لا يعرف القدّيسون، وأيّ رجلٍ من رجال الله، أنّهم يستطيعون أن يُصلّون هكذا طويلاً ويصومون هكذا كثيرًا وببساطة، وما إلى ذلك، إلى أن يبدأوا في عيش نمطِ حياةٍ نسكيّ. إن لم يكشف الله لهم أنّه قادرٌ على ذلك، فإنَّهم لا يعرفون ذلك بأنفسهم.

س: بالفعل، كما يقولون، القدرة تأتي من الخبرة...

ج: لهذا السبب، علينا أن نبدأ العيش مع الله، لكي ينكشف كلُّ عمقِ إمكانات طبيعتنا أمامنا قبل أن تُغلَقَ أعيُننا. كلُّ واحدٍ منّا هو مشروع قدّيس. من المؤسف أن نموت من دون أن نكون قد جرّبنا شيئًا كهذا، ألا توافقني؟

حياة الكنيسة مليئةٌ كلُّها بأمثلةٍ عن شجاعةِ أشخاصٍ قرّروا العيش مع الله. تخيّل، لم يكن العالم ليعرف القدّيس سيرجيوس رادونيج أو القدّيس سيرافيم ساروف، وهم أنفسهم لم يكونوا ليعرفوا القوى المخبّأة في نفوسهم لولا خبرة الكنيسة!

مع ذلك، لا يكمن معنى الحياة في تحقيق أهدافٍ قصوى، بل في التواضع، ومن خلال التواضع يعطي الربُّ نفوسَنا الفرصة لأن تنفتح بالقدْر والاتّجاه اللّذين يُرضيانه.

نقلتها إلى العربيّة أسرة التراث الأرثوذكسيّ

Source: Olga Orlova and Met. Nikolaos of Mesogaia and Lavreotiki (2019). *Each One of Us is a Potential Saint*. In *OrthoChristian*.

القدّاس الإلهيّ محادثةٌ بين الله والإنسان

حديثٌ ثامنٌ حول القدّاس الإلهيّ

المطران أثناسيوس (ليماسول)

- **الأنديفونة الأولى**

أنهَينا في الحديث الأخير تحليل نَصِّ الطّلبة السلاميّة. في أثناء تلاوة الشمّاس لهذه الطِّلبة، يقف الكاهن في الهيكل أمام المائدة المقدّسة، ويقرأ بصوتٍ منخفضٍ صلاةً لا يسمعُها المُصلُّون في الكنيسة، بل يسمعون فقط الإعلان الأخير منها. تُدعى هذه الصلاة "إفشين الأنديفونة الأولى". فلنقرأها ولنُحلِّلها:

"أيّها الربُّ إلهنا، الذي عزّته لا توصَف، ومجدُه لا يُدرَك، ورحمته لا تُحَدّ، ومحبّته للبشر لا تُقاس، أنتَ أيّها السيّد، اطَّلِعْ بتحنُّنكَ علينا وعلى هذا البيت المقدَّس. واجعلْ مراحمكَ ورأفاتك غنيّةً علينا وعلى المصلّين معنا".

القدّاس الإلهيُّ محادثةٌ بين الله والإنسان: يخاطب الكاهن الله بصلواته، ويجيب الله من خلال نعمة الروح القدس التي يُرسلها، وهكذا يلتقي الله والإنسان.

يبدأ الإفشين بهذه الكلمات:

"أيّها الربُّ إلهنا، الذي عزّته لا توصَف، ومجدُه لا يُدرَك، ورحمته لا تُحَدّ، ومحبّته للبشر لا تُقاس".

مهما قال الإنسان عن الله فإنَّه يعجز عن وصفه. نحن ندعو الله صالحًا ومُحبًّا للبشر ورحيمًا وشفوقًا – ويمكنكم أن تُطلقوا عليه ألفَ اسمٍ آخر، ولكنْ، إذا ما أخذنا المعنى الحرفيَّ لكلٍّ من هذه الكلمات، فإنَّ الله ليس أيًّا من هذه المعاني، بما أنَّه لا يُحدُّ بتعريفٍ بشري. إذا صحَّ التعبير، فإنَّ الله هو هكذا [كما نصِفُه] وليس هكذا. فالله صالحٌ، ولكنَّه أيضًا ليس صالحًا، لأنَّه يفوق تعريف الصلاح. مع ذلك، نحن نشعر بحضوره غير المحدود وغير المدرَك والمتعذِّر وصفه، ونختبره في قلوبنا. وكلُّ واحدٍ منّا، من الرضيع حديث

الولادة إلى الرجل الذي على حافة الموت، يختبر الله بطريقته الخاصّة التي لا يعرفها أحدٌ سواه. ولهذا، لا تستبعد الكنيسة شخصًا واحدًا من الجماعة الليتورجيّة.

نسمع أحيانًا القول التالي: "لمَ عليَّ الذهاب إلى الكنيسة ما دمتُ لا أفهم شيئًا من الخدمة؟". من الجيّد طبعًا أن نفهم الأمور التي تجري خلال الخدمة الكنسيَّة. ولكنْ، كيف يمكن لطفلٍ رضيعٍ أن يفهم؟ كيف يمكن لإنسانٍ أصمَّ أن يفهم؟ كيف يمكن لأجنبيٍّ أن يفهم؟ كيف يمكن لطفلٍ مُصابٍ بمتلازمة داون أن يفهم؟ أفلا يحتاجُ أيٌّ من هؤلاء للمجيء إلى القدّاس؟ بلى، بالطبع. فالقدّاس الإلهيّ، في نهاية الأمر، ليس ضربًا من الأنشطة الفكريَّة. تكمن أهمّيّة القدّاس الإلهيّ في كوننا، نحن المصلِّين، نصبح مشاركين في النعمة الإلهيَّة المنسكبة في الكنيسة خلاله. فالرُّضَّع وذوو الإعاقة العقليّة والمرضى والمشرفين على الموت يمكنهم جميعًا أن يشتركوا في هذه النعمة، بغضِّ النظر عمّا إذا كانت أدمغتهم قادرةً على فهم الأشكال الليتورجيّة وإدراكِ معناها المستيكيّ.

يفهم بعضهم، مثلًا، معنى عبارة: "اعضد وخلِّص وارحم واحفظنا يا الله بنعمتك"، وهذا أمرٌ جيّدٌ جدًّا. غير أنّ أولئك الذين لا يفهمون معنى هذه العبارة لا يُصابون بأيِّ أذىً من جرَّاء ذلك، فنقصُ الفهم لا يحول دون اشتراكهم في نعمة سرِّ المسيح، الذي نحتفل به خلال القدّاس الإلهيّ.

بالطبع، هذا لا يعني أن نُلغي العبادة العقليّة وأن نرفض الحاجة إلى الفهم. فعلينا، بلا شكّ، أن نفهم ما يُقال خلال القدّاس، لأنّنا نجني بهذه الطريقة منفعةً أكبر بكثير. ولكنْ، ماذا نفعل إذا كانت ظروفنا وحالتُنا تحول دون استيعابنا للخدم الكنسيَّة؟

لدينا في الدير راهبٌ أجنبيّ. عندما وصل إلى هنا لم يكن يعرف اليونانيَّة على الإطلاق، وكنّا نتواصل باللغة الفرنسيَّة. كان ذلك الأخ يقف في الكنيسة ساعاتٍ، مُصلِّيًا ومشاركًا في الخدم كما لو كان يعرف كلَّ شيءٍ عن ظهر قلب. لم ينزعج مُطلقًا من عدم فهمه القراءات والتراتيل. سألناه: "أتفهم أيَّ شيء؟"، فقال "لا، مطلقًا". يمكنني القول إنَّه لم يتأذَّ أو يتضرَّر بسبب عدم الفهم. طبعًا، تعلَّم الآن اليونانيّة، لكنّه لم يكن يعرف أيَّ شيءٍ في ذلك الحين.

ثمّة اتّصالٌ بين الله والإنسان. في الصلاة، يقف الإنسان أمام الله ويتحدَّث إليه وجهًا لوجه، مُفصحًا له عن مشاعره كلِّها. علينا أن نصلِّي بانتباهٍ وتوقيرٍ فائقَين، شاعرين بأنَّ التحدُّث إلى الله ليس أمرًا اعتياديًّا أو مألوفًا. إذا كنتم قد قرأتم سيرة القدّيس نكتاريوس من آيينا، ستتذكّرون كيف أنَّه كان، في صلاته إلى والدة الإله، يخاطبها بطريقةٍ رسميَّة: "أنتِ يا والدة الإله الفائقة القداسة...". ما دفعه إلى الصلاة بهذه الطريقة كان إحساسُه بالتوقير لوالدة الإله.

في القدّاس الإلهيّ، تخاطب الكنيسةُ الله بطريقةٍ لاهوتيَّة، تُعبّر فيها عن حالتها الداخليّة، فتقول في الأنديفونة الأولى على سبيل المثال:

"أيّها الربُّ إلهنا، الذي عزّته لا توصَف، ومجدُه لا يُدرَك، ورحمته لا تُحَدّ، ومحبّته للبشر لا تُقاس".

قد يبدو لنا أنَّه من الممكن حذف ذلك كلِّه والقول ببساطة: "أنتَ تعلم يا ربّ، أعطِني كذا وكذا"، كما لو أنّنا في متجر بقالة: "أريد وعاء حليب ورغيفَي خبزٍ وكيلو بندورة". إلّا أنّنا لا نُكلِّم الله بهذه الطريقة، بل نتحدّث إليه بصورةٍ مختلفة. نعم، يمكننا التوجُّه إلى الله بدالّةٍ كما لو إلى صديقٍ أو أخٍ أو أب، إلى ذاك الأروع والأعزّ إلينا، ولكنْ علينا، في الوقت عينه، أن نقوم بذلك بتوقيرٍ فائق، مُدركين أنَّ مَن نُخاطبه هو الله. إنَّ هذا لَشديدُ الأهميَّة لنفوسنا. وما الذي نطلبه من الله؟

أنتَ أيّها السيّد، اطَّلِعْ بتحنُّنكَ علينا...

ندعو الله لينظر إلينا بتحنُّنه من دون أن نطالبَه بشَيءٍ أو نحتجَّ عليه، ومن دون أن ندَّعي أنَّ لنا حقوقًا. [نقول] بما أنَّك رحيمٌ ومحبٌّ للبشر، وبما أنَّك تحبُّنا، نسألكَ أن تنظر إلينا بحنوٍّ ومحبَّةٍ، مع أنَّنا لا نستحقُّ ذلك.

يُنهي الكاهن الصلاة بالإعلان: "لأنَّه بكَ يليق كلُّ مجدٍ وإكرامٍ وسجود، أيُّها الآب والابن والروح القدس، الآن وكلَّ أوانٍ وإلى دهر الداهرين"، وتجيب الجوقة "آمين".

كلُّ شيءٍ يخصُّ الله، فما الذي يخصُّنا نحن؟ ما الذي يمكننا فعله؟ يمكننا أن نستجيب لدعوة الله؛ يمكننا أن نقوم بما في وسعنا. لكلِّ حقبةٍ ولكلِّ عصرٍ ولكلِّ ساعةٍ احتياجاتها. وقد يتجاوب الإنسان مع تحدِّيات الأزمنة والظروف أو لا. فالقدّيس يوحنّا الرحيم، على سبيل المثال، عاش في زمنٍ كانت توجد فيه حاجةٌ إلى

الإحسان. وماذا فعل؟ استجاب لاحتياج زمنه ووزَّع ممتلكاته؛ أصبح مُتصدِّقًا. عاش القدّيس أثناسيوس الكبير في زمنٍ هدَّدت فيه هرطقاتٌ متنوِّعةٌ التعليمَ المسيحيَّ الحقيقيّ. فكرَّسَ نفسه لهذه الحاجة "قاطعًا باستقامةٍ كلمة حقٍّ"، واحتمل لأجل ذلك الاضطهادات والمضايقات وعانى النَّفي؛ ولكنَّه صمد في هذا الصراع، وحفِظَ إيمان الكنيسة، وسلَّمه لنا غير مشوَّه.

اليوم، في فترةٍ نمرُّ فيها بأزمةٍ اقتصاديَّة، وتواجهنا الكثير من الصعوبات، نحن مدعوَّون إلى مساعدة بعضنا بعضًا بأفضل ما نستطيع. ألا يستطيع الله أن يجد طريقةً لتجاوز الأزمة؟ بلى، بالطبع يستطيع. ألا يستطيع إطعام الجائعين والبؤساء والفقراء؟ بلى، بالطبع يمكنه ذلك. يمكنه أن يُحوّل الحجارة إلى خبزٍ ليُطعم الجائعين. ليس الله بحاجةٍ إلى أن أُظهر أنا الرحمة تجاه قريبي، لأنَّه هو نفسه قادرٌ على مساعدة هذا الإنسان أفضل بكثيرٍ ممّا أستطيع أنا. أن أُظهر الرحمة لقريبي، أن أسانده، أن أعينُه، أن أقول له كلامًا طيِّبًا، هذا كلُّه ضروريٌّ لي أنا.

هناك مثالٌ جميلٌ في العهد القديم. عندما أصدرَ الملك الفارسيّ أرتحشستا مرسومًا يقضي بإهلاك جميع اليهود في مملكته، طلب أحد اليهود (مردخاي) من الملكة أستير (التي كانت قريبته) أن تتوسّل إلى زوجها الوثنيّ ألّا يُلحق الأذى بالشعب اليهوديّ. تردَّدت أستير قائلة: "كيف سأسترحم الملك؟ إنَّ الموت يتهدَّد كلَّ مَن يجرؤ على الدخول إلى الملك من دون أن يُستدعى. ولم يدعُني الملك إليه منذ ثلاثين يومًا" (عليَّ أن أقول إنَّه في تلك الأيّام، لم تكنِ الأمور تجري كما اليوم، حيث تستطيع الزوجة أن تتوجّه إلى زوجها بأيِّ طلبٍ وبكلّ سهولة، والويل له إنْ لم يُسرع إلى تحقيق رغبتها). قال مردخاي لأستير:

"إذا ذهبتِ إلى الملك وطلبتِ منه وسمع منك، فالله سيباركِكِ ويبارك بيتكِ كلَّه. ولكنْ، إذا تخوَّفتِ ولم تذهبي إليه، فإنَّ الله سيُخلِّص شعبه بوسائل أخرى، وأمّا أنتِ وبيت أبيكِ فستهلكون" (انظر أستير 4: 7-14).

ما الذي يعنيه ذلك بالنسبة لنا؟ لا يحتاج الله منكم أن تُقدِّموا الصدقات. يمكن لله أن يقوم بنفسه بإغاثة المحتاجين، ولكنْ، أنتم الذين لا تعطون الصدقة لن تنالوا بركةً من الله لأنّكم ازدريتُم بحاجة قريبكم التي دُعيتُم إلى تلبيتها، أيًّا كانت تلك الحاجة.

يدعونا الله إلى أن نعترف بإيماننا يوميًّا بطريقةٍ أو بأخرى. أحيانًا، نكون مدعوّين للاعتراف بإيماننا عبر حفظ الصوم، وأحيانًا بتقديم الصدقات، وأحيانًا بصَون عقائد الكنيسة وحقائق الإيمان. يجب أن نكون أمناء لله في سائر الأوقات وتحت أيِّ ظرف. أظنُّ أن الإنسان قادرٌ على ذلك، وأمَّا كلُّ شيءٍ آخر فهو يخصُّ الله. ولأجل ذلك نقول إنَّ كلَّ مجدٍ وإكرامٍ وسجودٍ يعود إليه. وعندما يتمجَّد الله، نتمجَّد نحن أيضًا، لأنّنا أولاده ونشترك في هذه البركة التي يرسلها الله إلى العالم بأسره.

الآن وكلَّ أوانٍ وإلى دهر الداهرين

كلُّ ما يحصل في الكنيسة يمتدُّ إلى الدُّهور التي لا نهاية لها. ينهدم حائطُ سياج الموت المتوسّط، ويتلاشى الموت، وتنتقل كلماتُنا وأفعالنا وحياتنا كلُّها إلى الأبديَّة. لذلك، ما من شيءٍ ثانويٍّ أو عديم النفع أو غير مهمٍّ في حياتنا...

- **الأنديفونة الثانية**

بعد أن ترتِّل الجوقة الأنديفونة الأولى، يقرأ الشمّاس الطلبة:

أيضًا وأيضًا بسلامٍ إلى الربِّ نطلب.

أعضد وخلّص وارحم واحفظنا يا الله بنعمتك.

بعد ذِكرنا الكلّيّة القداسة الفائقة البركات المجيدة، سيّدتنا والدة الإله الدائمة البتوليّة مريم، مع جميع القدّيسين، فلنودعْ ذواتِنا وبعضنا بعضًا وكلَّ حياتنا المسيحَ الإله.

لقد ناقشنا هذه الابتهالات في الحديث السابق.و بينما يتلو الشمّاس الطلبة، يقرأ الكاهن في الهيكل صلاة الأنديفونة الثانية:

"أيُّها الربُّ إلهنا، خلِّص شعبكَ وبارك ميراثك، احفَظْ كمال كنيستك، قدِّس الذين يحبُّون جمال بيتك. أنتَ امنحهُم عوضًا من ذلك مجدًا بقدرتكَ الإلهيَّة، ولا تُهملنا نحن المتوكّلين عليك".

كما ترون، يُدعى المسيح قائدَ الشعب. هو الإله-الإنسان، لذلك، ولكونِه وسيطَنا أمام الله، يقف في طليعة شعبه ويُصلِّي من أجل خلاص المسيحيِّين (راجع 1 تيموثاوس 2: 5). ففي نهاية الأمر، نحن، المسيحيّين، مَن هم شعب الله المختار الآن، وليس شعب إسرائيل بالطبع. كان الشعب الإسرائيليُّ الشعبَ المختار إلى حين صَلْبِ المسيح.

ليس لأنَّ هذا الشعب كان بحدّ ذاته خاصًّا ومميّزًا، بل لأنَّه كان سيلِد العذراء مريم الفائقة القداسة – الأكمل بين النِّساء، والتي كانت وحدها قادرةً على أن تلد الله وتجلبه إلى العالم. بعد صلب المسيح، أصبحت كنيسةُ المسيح إسرائيل الجديد. أيًّا تكن جنسيّاتنا – يونانيّين كُنَّا أم أتراكًا أم عربًا أم روسيّين أم أميركيّين، إذا كنّا أعضاءً في كنيسة المسيح، فنحن شعب الله وإخوةٌ بالنعمة.

إنَّ الغاية النهائيَّة من جميع صلوات الكنيسة هي خلاص الإنسان. الخلاص هو حاجتنا الحقيقيّة، وكلُّ ما عدا ذلك هو أمرٌ ثانويّ. أوصانا المسيح بأن نطلب ملكوت الله قبل كلِّ شيءٍ، ووعدَنا بأنَّ كلَّ شيءٍ آخر سيُزادُ لنا (راجع لوقا 12: 31).

احفظ كمال كنيستك

بكلامٍ آخر، احفظ بنعمتكَ جميع المسيحيِّين الذين هم أعضاء كنيستك. عندما نصبح أعضاءً في الكنيسة، ننضمُّ إلى صفوف جيشها. نحن جنودٌ روحيُّون ويجب أن نحارب القوّات المضادَّة التي تحاول أن تهدم عمل الكنيسة. وكما يقاتل الجنود في أرتالٍ عبر أرض المعركة، هكذا نشنُّ نحن المسيحيِّين حربًا روحيَّة، كلٌّ من موقعه: البعض في العمل وآخرون في البيت، وآخرون في المدرسة – في أيّ مكان. على جنديِّ المسيح أن يصدَّ هجمات الجيران، وزملاء العمل، والزوج أو الزوجة، والأبناء، ورفاق الصفِّ أو الأساتذة. تُشَنُّ هذه الحرب بالكلام والأفعال، وبطرائق متنوِّعة. أحيانًا لا يكون لدى مَن هم حولنا رغبةٌ متعمَّدةٌ في أن يكونوا عدائيّين تجاه المسيحيّين. ومع ذلك، عبر اشتراكهم الحرِّ في الخطيئة، يُبدون عدائيَّةً تجاه مَن يحملون اسم المسيح ويرغبون في أن يحبُّوا الله. في أيّامنا هذه، لا تُرتكب الخطيئة بحرّيّةٍ فحسب، بل يُروَّج لها أيضًا بشتَّى الطرق، وهذا الأمرُ كذلك هو حربٌ ضدَّنا. وينضمُّ الشباب، على وجه الخصوص، إلى هذه الحرب يوميًّا. نعمل ونبذل كلَّ جهدٍ مُمكنٍ لنقاوم التجربة ونرفض الخطيئة، فيما يتبجَّح جارنا

بخطاياه ونجاحه في ارتكاب الشرّ يوميًّا. إنَّ الامتناع عن الخطيئة في وضعٍ كهذا هو عملٌ عظيمٌ نحن مدعوُّون إلى تحقيقه. لذلك، نُصلّي إلى الإله الصالح أن يحفظ أعضاءَ كنيسته من عبوديَّة صنم الخطيئة الذي ينتصبُ أمامهم في كلِّ حين.

قدِّس الذين يحبُّون جمال بيتكَ

فلنُركِّزْ على هذه العبارة قليلًا. كما ترون، تذكر الكنيسة في صلواتها جميعَ الذين يحبُّون جمال بيت الله. قد تجدون اليوم مسيحيِّين يريدون الكنيسة فارغةً من الداخل من دون أيّ تصميمٍ داخليّ. يتساءلون: "ما حاجتكم إلى كلِّ هذه الثريَّات وحوامل الشموع في الكنيسة؟".

لا شكَّ في أنَّ الكنيسة تبقى بيتَ الله حتّى من دون تصميمٍ داخليّ. فالكنيسة، كما تذكرون، قد وُلِدت وترعرعت في الكهوف والسراديب. علاوةً على ذلك، بإمكاننا تدبُّر أمرنا تمامًا من دون كنائس حجريَّة. يمكننا إقامة الخدم الإلهيَّة في كوخٍ بسيط. إذا ذهبتُم إلى إفريقيا، سترون أنّ الكثير من الكنائس هي عبارةٌ عن أكواخٍ سقوفها من قشّ. لا ضير في ذلك. ولكنْ، نحن أنفسنا بحاجةٍ إلى أن تكون كنائسُنا جميلة، وأن يتميَّز بيتُ الله بأبَّهةٍ خاصّة، وأن تكون الكنائس أماكن يمكنها، بحدِّ ذاتها، أن تقدِّم العَون للإنسان.

كما ترون، للكنيسة هندستها الخاصّة: تُبنى الكنائس بطريقةٍ مختلفةٍ تمامًا عن بقيّة الأبنية. للكنيسة موسيقاها الخاصّة: هنا نرتِّل بصورةٍ مختلفةٍ عن الغناء في العالم. للكنيسة تصميمها الخاصّ، وشذاها الخاصّ وعبيرها الخاصّ. في منازلنا، نستخدم معطّرات الجوّ والعطور؛ أمَّا في الكنيسة، فلا يُستخدَم أيٌّ من ذلك – هنا لدينا بخورُ ولبانٌ ذو رائحةٍ جميلة. تخيَّلوا كيف كان سيبدو الأمر لو أنَّه خلال ترتيل "لتستقم صلاتي كالبخور أمامك"، وعِوَضًا عن التبخير باللُّبان، استخدم الكاهن علبة مُعطِّر جوّ. لا تضحكوا، لأنَّني سمعتُ أنَّ أمورًا كهذه تحصل في الخارج، في كنائس غير أرثوذكسيَّة. أخبروني أنَّه في إحدى الكنائس، لم يُرد الكاهن (غير الأرثوذكسيّ) أن يُبخِّر ويملأ الكنيسة بالدُّخان، لذلك وضع في الكنيسة جهازًا بمرشِّات. عندما كان التيبيكون يشير إلى وجوب التبخير، كان الكاهن يضغط زرًّا، وتبدأ المرشَّات بالعمل، وتمتلئ الكنيسة برائحة الياسمين أو الليمون أو أيِّ شيءٍ آخر.

دعونا نقول إنَّ الكنيسة تتمتّع بنكهتها الخاصّة: يتذوَّق المؤمنون الكوليفا وخبز التقدمة والمناولة الإلهيّة. على سبيل المثال، تُنزل قوانين الكنيسة بالكاهن عقوبةً قد تصِلُ إلى حدِّ التجريد من الرتبة الكهنوتيّة إذا كان لا يسكب ماءً ساخنًا (الدفء) في الكأس المقدَّسة في أثناء احتفاله بالقدَّاس الإلهيّ، ويناوِل المؤمنين قرابين مقدَّسة باردة (مثلًا، القانون 13 للقدّيس نيكيفوروس القسطنطينيّ). لماذا يُعَدُّ سَكبُ الماء الساخن مهمًّا للغاية؟ لأنَّه يجب أن يشعر المسيحيُّ، عند المناولة، بأنَّه يتناول جسدًا حيًّا ودمًا حيًّا، وليس ميتًا. كذلك، يجب على الكاهن أن يضبط بدقّةٍ مقدار الماء الذي يسكبه داخل الكأس. يجب ألّا يصبَّ الكثير من الماء حتّى لا يفقد الخمرُ والخبز طعمهما. ويخبَزُ خبز التقدمة بطريقةٍ معيَّنة، ولا يمكن استخدام أيِّ نوعٍ آخر من الخبز بديلًا عنه.

للكنيسة موسيقاها الخاصّة، وهندستها الخاصّة، ورسومها الخاصّة، وتصميمها الخاصّ. لم تكتسب الكنيسة ذلك كلّه عبر قرونٍ من خبرة القدّيسين فحسب، بل وأيضًا من خلال الرؤى الممنوحة من الله. عندما بنى موسى خيمة الاجتماع، أراه الله نفسُه ما الذي يجب أن يعمله وكيف. حذَّر الله موسى قائلًا: "انظر واصنع تمامًا كما ترى في الجبل المقدّس، كما أريتُكَ. لا تبنِ بخلاف ذلك. يجب أن تقيس كذا ذراعًا بالطول وكذا ذراعًا. ويجب أن تصنع هذه الأدوات بالتحديد (راجع خروج 25-27). هكذا تُحضِّر البخور (راجع خروج 30: 34-36)". ولم يسمح الله للإسرائيليّين باستخدام البخور لأغراضٍ أخرى غير ليتورجيَّة. البخور شيءٌ مخصَّصٌ لبيت الله حصريًّا.

لماذا نحاول أن نبني كنائس الله بأبّهةٍ خاصَّة؟ حتّى يدرك كلُّ مَن يدخل الكنيسة أنّ هذا المكان يخصُّ الله، ويشعرَ بحضوره، ويصلِّي إلى الله ويتلقَّى بركته. إذا جلسْتُم في الكنيسة بضع ساعاتٍ، ستُصدَمون بعدد الأشخاص الذين يأتون إليها ليرتاحوا ويهدؤوا ويشعروا بالسلام ويصلُّوا. كم من المهمِّ أن يجد الناس في الكنيسة الجوَّ الملائم حتَّى يدركوا، حين يدخلون، أنَّ هذا مكانٌ مميَّزٌ له جماله الخاصّ ودفؤه الخاص. وهذا كلُّه من صُنعِ أيدٍ بشريَّة، بما أنَّ الكنائس يبنيها البشر، ولهذا نصلِّي من أجل الذين عمَّروا الكنائس المقدّسة وكلِّ الذين يحبُّون جمال بيت الله.

كان هناك قدّيسٌ، إذا ما همَّ بشراء شمعةٍ في الكنيسة، اختار أنظف قطعةٍ نقديَّةٍ وأكثرها لمعانًا. وإذا كانت القطعة النقديَّة متَّسخةً قليلًا، كان ينظِّفها بمنديل. لماذا كان يفعل ذلك؟ لكي يُقدِّم لله الأفضل والأنقى. إنَّها بساطةٌ! لكنَّ هذه البساطة تُظهِرُ نُبل النفس البشريَّة.

أنتَ امنحهُم مجدًا بقدرتكَ الإلهيّة...

لأولئك الذين يمجِّدونك، والذين يُقرِّبون لك القرابين، والذين يخدمونك بأعمال أيديهم، أعطِ يا إلهي مجدَ قدرتكَ الإلهيَّة.

لا تهملنا نحن المتَّكلين عليكَ

لا تتخلَّ عنَّا نحن المُلقين رجاءنا عليك. إنَّنا نرجوكَ ونصرخ إليك.

لأنّ لكَ العزّة، ولكَ المُلكَ والقدرة والمجد، أيّها الآبُ والابن والروح القدس، الآن وكلّ أوانٍ وإلى دهر الداهرين.

نقلتها إلى العربيّة أسرة التراث الأرثوذكسيّ

Source: Metropolitan Athanasios of Limassol (2024). "The Liturgy is a Conversation between God and Man: Eighth Talk on Divine Liturgy", in *OrthoChristian*, Part I, Part II.

الثالوث عند كنيسة القرون الأولى[1]

الأب أنطوان ملكي المغبوط الذكر

مع وصولنا الى نهاية القرن العشرين، لم يزل من الصعب الكلام على الثالوث بشكلٍ علميّ ويبقى الكلام اليقين والصحيح في هذا الموضوع حكرًا على الذين يسكنهم الروح القدس بشكلٍ حيّ وفاعل. فمع أنّ صياغات هذه العقيدة الأساسيّة في المسيحيّة لم تتّضح تعابيرُها إلّا في أواخر القرن الرابع، وذلك لدحض البدع التي مسّت الأقنومَين الثاني والثالث، فهذا لا يعني أنّ كنيسة القرون الأولى لم تكن تملك الإيمان الصحيح، وبخاصّةٍ هذه العقيدة الثالوثيّة التي يؤكّد الآباء أنّ الإشارات اليها موجودةٌ حتّى في العهد القديم، وإن لم يفهمها أهلُه في حينه.

في هذه الدراسة، سوف نعرض أهمَّ الآراء الآبائيّة عن الثالوث في فترة القرون الأولى، أي تحديدًا حتّى نهاية القرن الثالث. فكنيسة القرون الأولى تسلّمت من الرسل ما تسلّموه هُم أنفسهم من الربّ يسوع الذي أشار في أكثر من محطّةٍ الى ثالوثيّة الله. وقد حفِظت هذه الكنيسة هذا التعليم ونقلتْهُ بأمانة، إلى أن أتت المجامع اللاحقة وأوضحته وثبّتته كعقيدة. ويظهر التزام هذه الكنيسة في عدّة أمورٍ أهمّها: الليتورجيا وتعليم الآباء القدّيسين.

الليتورجيا

يصِفُ يوستينوس الشهيد الليتورجيا الإفخارستيا التي تُقام بوجود المعتمد الجديد مع الإخوة بأنّها تبدأ بصلواتٍ حارّةٍ من أجل الجميع في كلّ مكان، لكي يحصلوا على النعمة فيعملوا الصالحات ويحفظوا الوصايا، فيَصلوا إلى الخلاص الأبديّ. وبعد هذا، يتبادلون قبلة السلام، ثمّ يأخذ المتقدّم خبزًا وخمرًا ويُمجّد الآب من خلال اسم الابن والروح القدس[2].

[1] مقالة منشورة في مجلة التراث الأرثوذكسي في كانون الأول 2011
https://www.orthodoxlegacy.org/2011-12-29-14-45-21/

[2] Leberton, Jules and Zeiller, Jacques. *The Emergence of the Church in the Roman World.* Book II of *A History of the Early Church*. Collier Books. New York. 1962. P. 164.

ونجِدُ، بعد هذا التاريخ بقليل، لدى القدّيس إيريناوس في سياق إيضاح التعليم الرسوليّ، وصفًا لليتورجيا العماد: **"عندما نتجدّدُ بالمعموديّة المُعطاة لنا باسم الأشخاص الثلاثة، نقتني في هذه الولادة الثانية الأشياء الحسَنة التي في الله الآب من خلال ابنه مع الروح القدس. لأنّ الذين يعتمدون يحصلون على روح الله الذي يُسلّمهم للكلمة، الذي يأخذهم ويسلّمهم إلى أبيه، والآب ينقل لهم عدم البِلى. إذًا من دون الروح، لا يستطيع أحدٌ أن يرى كلمة الله. ومن دون الابن،لا يستطيع أحدٌ أن يصِلَ الى الآب لأنّ معرفة الآب هي الابن، ومعرفة ابن الله تكون بالروح القدس... ولكنّ الابن وحده هو مَن يوزّع الروح بحسب ما يُرضي الآب..."**[3].

أيضاً نجِدُ في عددٍ من إعلانات الإيمان التي تعود الى القرون الأولى، اعترافاتٍ بالآب والابن والروح القدس. أقدمُها ما يسمّى برسالة الرسل The Epistle of the Apostles، وهي من الأدب الأبوكريفيّ، وكُتبت نحو العام 180، وقد جاء فيها ما يلي:

"أومن بالآب الكلّيّ القدرة

بيسوع المسيح مخلّصنا

وبالروح القدس المعزّي

بالكنيسة المقدّسة، بمغفرة الخطايا".

وُجِدَ أيضًا نصٌّ مماثلٌ على أوراق بردي مصريّة تعود الى أواخر القرن الثاني، ما يدلّ على أنّ الاعتراف الثالوثيّ كان منتشرًا في أنحاء العالم الرومانيّ[4].

وأيضًا يمكننا أن نقرأ توصيات في تعليم الرسل الاثني عشر تُشدّد على أن يكون التعميد باسم الآب والابن والروح القدس[5].

[3] المرجع نفسه، ص. 168.

[4] المرجع نفسه، ص. 172.

[5] رستم، أسد. آباء الكنيسة. القرون الثلاثة الأولى. منشورات النور. 1983. ص. 60.

وفي السياق نفسه، النصّ الذي يورده هيبّوليتوس عن ممارسة سرّ المعموديّة هو التالي:

"وعندما ينزل الطالبُ إلى الماء يضع المعمِّد يدَه عليه ويقول: هل تؤمن بالله الآب الفائق القدرة؟ فيُجيب طالبُ المعموديّة: إنّي أومن. فيُعمّده المعمِّد مرّة. ثمّ يقول له: وهل تؤمن بالمسيح يسوع ابن الله الذي ولِدَ من الروح القدس ومن مريم العذراء، الذي صُلِبَ في عهد بيلاطس البنطيّ ومات وقُبِرَ وقام في اليوم الثالث من بين الأموات، وصعد إلى السماء وجلس عن يمين الآب، وبأنّه سيأتي ليدين الأحياء والأموات؟ وعندما يقول إنّي أومن يُعمّده مرّة ثانية. ثمّ يقول له وهل تؤمن بالروح القدس وبالكنيسة المقدّسة وبقيامة الجسد؟ فيقول المعمَّد إنّي أومن فيُعمّده المعمِّد مرّة ثالثة. وبعد خروجه من الماء، يمسحه الكاهن بزيتِ الشُّكر قائلاً: "إنّي أمسحُكَ بالزيت المقدّس باسم يسوع المسيح"، فيخرج عندئذٍ المعمَّدون من الماء، وينشّفون أجسادهم بالمناشف، ويلبسون ثيابهم ويجتمعون في الكنيسة"[6].

تعليم الآباء القدّيسين

إضافةً إلى النصوص الليتورجيّة التي رأينا فيها دلائل على أنّ إيمان كنيسة القرون الأولى الثالوثيّ بلغ المُمارسة، هناك كتاباتٌ عديدةٌ لآباءٍ وكتّابٍ كنسيّين من القرون الثلاثة الأولى توضح أكثر مفهوم كنيسة تلك القرون لهذه العقيدة الأساسيّة.

نبدأ بالقدّيس إقليمس أسقف رومية في رسالته الى أهل كورنثوس التي يردّ الدارسون تاريخها إلى أواخر القرن الأوّل، حيث نقرأ:

"الرسل بشّرونا بيسوع المسيح أرسله الله. المسيح من الله والرسل من المسيح... والرسل... تأكّدوا من كلام الربّ بالروح القدس.... وأقاموا مختاري الروح القدس.."[7].

أيضًا في مكانٍ آخر من الرسالة نفسها، نرى أنّ القدّيس يعتبر أنّ إيمان المختارين ورجاءهم هو في حياة الأقانيم الثلاثة، من دون أن يسمّيها أقانيم:

[6] المرجع نفسه، ص. 177.

[7] الآباء الرسوليون. طبعة ثانية. عربه عن اليونانية المثلث الرحمات البطريرك الياس الرابع (معوض). منشورات النور. 1982. ص. 42.

"اقبلوا نصيحتنا فلن تندموا. حيٌّ هو الله، حيٌّ هو يسوع المسيح وحيٌّ هو الروح القدس وحيٌّ هو إيمان ورجاء المختارين"[8].

وفي الرسالة نفسها، يرى القدّيس في وحدانيّة الثالوث دعوةً إلى وحدة المؤمنين:

"أليس لنا إلهٌ واحدٌ ومسيحٌ واحدٌ وروح نعمةٍ واحدٌ انسكبَ علينا؟ ودعوةٌ واحدةٌ في المسيح؟ لماذا نُمزّق ونقطع أعضاء المسيح؟"[9]

وبعد هذا التاريخ بقليلٍ نقرأ لدى القدّيس أغناطيوس المتوشّح بالله كلامًا أوضح عن الثالوث للتعبير عن اكتمال الوحدة بين المؤمنين مشبّهًا إيّاها بالوحدة بين الأقانيم، وذلك في رسالته الى أهل مغنيسية:

"حاوِلوا أن تثبتوا في عقائد الربّ والرسل حتّى تنجحوا في أفعالكم، في الجسد والروح في الإيمان والمحبّة. في الآب والابن والروح القدس، في البدء والنهاية بالاتّفاق مع أسقفكم الجليل... أطيعوا أسقفكم وبعضكم بعضًا كما أطاع المسيح بالجسد الآب، وكما أطاع الرسلُ المسيح والآب والروح القدس حتّى تكون الوحدة جسديّة وروحيّة"[10].

وفي عدّة أماكن أخرى، يساوي القدّيس أغناطيوس بين الآب والابن، فالحياة هي في الله أو في المسيح، والمسيحيّ يسعى للوصول الى الله أو الى المسيح، والمسيحيّون هم هياكل الله أو هياكل المسيح. ففي رسالته إلى بوليكاربوس يساوي بينهما:

"كُن عظيمًا أكثر ممّا أنتَ واعرف الأوقات معرفةً جيّدة. ترجّى مَن هو فوق الزمان، ترجّى مَن لا زمان له، غير المنظور، الذي صار منظورًا لأجلنا، الذي لا يُلامَس والذي لا يتألّم وتألّم من أجلنا واحتمل كلّ شيء"[11].

ثمّ نجده يميّز بينهما في رسالته الى أهل أفسس:

[8] المرجع نفسه. ص. 50

[9] المرجع نفسه. ص. 44.

[10] المرجع نفسه. ص. 118-119

[11] المرجع نفسه. ص. 139.

"لا يوجد غير طبيبٍ واحد، طبيب جسديّ وروحيّ، مولود وغير مولود، إله متجسّد وفي الموت حياة حقيقيّة. وُلد من العذراء ومن الله، قابلاً للآلام قبلاً وغير متألّم الآن، يسوع المسيح ربّنا"[12].

وأيضًا المتوشّح بالله يعلّم أهل مغنيسية أنّ الابن هو كلمة الله الذي أظهر الله نفسَه فيه[13]، وقد تجسّد وأتى إلينا ليكلّمنا لأنّه **"الفم الذي لا يعرف الكذب والذي تكلّم به الآب حقًّا"**[14]. وهو إذ يريد أن يدعم رأيه، يؤكّد أنّ ما يكشِف له ويُنير أفكاره ليس حكمته الشخصيّة بل الروح القدس الذي يطلب الوحدة:

"إذا كان البعض يشكّون بي لأنّي أرى مسبقًا شقاقات البعض فإنّي أشهد لله لا اللحم لم يكشف لي ذلك. إنّ الروح يقول لا تفعلوا شيئًا بدون الأسقف واحتفظوا بأجسادكم كهياكل لله، وأحبّوا الوحدة..."[15]

وفي قصّة استشهاد القدّيس بوليكاربوس، والتي يُعزى تاريخُها الى الربع الأوّل من القرن الثاني، نقرأ صلاة القدّيس قبل استشهاده:

"أيها الربّ الكلّيّ القدرة أبو ابنك المبارك المحبوب يسوع المسيح... أباركَكَ لأنّك أهلتَني في هذا اليوم وفي هذه الساعة لأكون من عداد شهدائك ومن مساهمي كأس مسيحك لقيامة الروح والجسد في الحياة الأبديّة بدون فساد، في الروح القدس... وأمجّدك بالكاهن الأعظم السماويّ الخالد يسوع المسيح ابنكَ الحبيب الذي به المجد مع روحك المقدّس الى الأبد آمين"[16].

فهكذا نقرأ وضوح الفكرة بأنّ مجد الآب هو في ابنه وروحه. أمّا في نهاية القصّة فنقرأ أنّ المجد مقدَّمٌ للآب والابن والروح القدس معًا.

ولكن لا إقليمس ولا أغناطيوس ولا أيّ من الكتّاب الآخرين الذين كتبوا في تلك الفترة، قاربَ السؤال الذي أصبح لاحقًا مدار الجدل، وهو علاقة الابن والروح بالآب[17].

---

[12] المرجع نفسه. ص. 110.

[13] المرجع نفسه. ص. 117.

[14] المرجع نفسه. الرسالة الى أهل رومية. ص. 127.

[15] المرجع نفسه. الرسالة الى فيلادلفيا. ص. 131.

[16] المرجع نفسه. ص. 161-162.

[17] Dictionnaire de Spiritualité. Vol. , p. 296.

فهِرماس الذي لا تُعتبر كتاباته قانونيّة، يخلط بين الابن والروح، فيرى أنّ هناك شخصان لا ثلاثة:
"جاء ملاك التوبة وقال لي: أريد أن أريكَ كلَّ ما أراك الروح القدس الذي خاطبكَ تحت شكل الكنيسة. هذا الروح هو ابن الله"[18].

وفي مكانٍ آخر نرى أنّه يلمّح الى أنّ المخلّص هو ابن الله بالتبنّي لأنّه خدم الروح بأمانة، وذلك بناءً على مفهومه السابق الذي يرى أنّ الروح والابن واحد[19].

ومع نهاية القرن الثاني، كانت علاقة الابن والروح بالآب قد بدأت تُطرَح، لا سيّما أنّ أتباع سيمون الساحر كانوا كثُرًا في السامرة، وكانت لهم نظرةٌ ثالوثيّةٌ ذات أصلٍ غنوصيّ. ومن السامرة انتقلت تلك الفكرة إلى أماكن أخرى من الدولة الرومانيّة كان يتواجد فيها المسيحيّون. يذكر القدّيس يوستينوس الشهيد الذي كان من نابلس أنّ أكثر السامريّين، مع آخرين من الأمم الأخرى، كانوا يرون في سيمون الساحر إلهًا أعلى. وفي نهاية القرن الثاني، يخبر القديس إيريناوس عن محاولات الغنوصيّين التكيُّف مع العقيدة الثالوثيّة بقولهم إنّ سيمون نزل بين اليهود بهيئة الابن، وبين السامريّين بهيئة الآب، وبين الأمم الأخرى بهيئة الروح القدس[20].

أيضًا في تلك الفترة، كانت قد بدأت تُطرَحُ تساؤلاتٌ حول ألوهة الروح بالابن والآب. وقد نشأت فكرتان: الأولى تقول إنّ الروح الإلهيّ أُضيفَ إلى يسوع الإنسان، والثانية تقول إنّ التجسّد كان صورةً يعلن الله نفسَه فيها للناس. وقد تبنّى الإبيونيّون Ebionites المبدأ الأوّل، وتبنّى الدوكيّون Docetics المبدأ الثاني، ورفضت الكنيسة المبدأَين[21]. وقد تولّى الآباء المناضِلون الدفاع عن الإيمان الصحيح ضدّ ادعاءات الغنوصيّين واليهود والوثنيّين.

أقدم دفاعٍ مسيحيّ ضدّ تهجّمات اليهود هو حوار يوستينوس الشهيد مع اليهوديّ تريفو. وفيه يرى يوستينوس أنّ الكلمة الإلهيّة (بالمعنى الحرفيّ) هي الواسطة التي علّم الله من خلالها العالم كلّه، ليس فقط بطاركة العهد القديم بل أيضًا الفلاسفة اليونان. وهو في هذا أوّل كاتبٍ استعمل عبارة "الكلمة" للدلالة على معنيَيها

[18] الآباء الرسوليون. ص. 235.

[19] المرجع نفسه. ص. 221.

[20] Leberton. p. 48.

[21] Jackson, F.J. Foakes. *The History of the Christian Church: From the earliest times to AD 461*. George Allen and Unwin LTD. London. 1957. p. 156.

المستعملَين الواحد في الفلسفة والآخر في لغة الوحي. فالله الحقيقيّ هو **"أبو العدالة والحِكمة وجميع الفضائل، وهو لا يظهر للعالم إلّا بواسطة وسيطٍ الذي هو الكلمة أو الأقنوم الثاني، الذي مع الآب نبجّله ونعبده ونكرّمه"؛ وهو "الابن الوحيد لإله الكون المولود منه كلمة وقوّة وبالتالي المولود من العذراء بالجسد كما نقل ذلك إلينا الرسل القدّيسون"**. والكلمة هو الطريق الحقّ إلى الله وهو معلّم الإنسان. وفي البدء كان قوّةً كامنةً في الله، فانبثق عنه بإرادته قبيل خلق العالم. ثمّ خلقَ الكلمة العالم[22]. والمسيح أعلن عن الروح القدس الذي هو الروح النبويّ والذي يعرفه يوستينوس من خلال إعلان المسيح عنه. وفي وقتٍ يناقش يوستينوس انبثاق الابن عن الآب ويُشبّهه بامتداد لهيب النار[23]، لا يحدّد الروحَ القدس لاهوتيًّا ولا يناقش طبيعته لأنّ عقله لا يدرك جوهر هذا الروح، ولكنّه يؤكّد تعليم التقليد بأنّ الروح هو الذي كشفَ سابقًا للأنبياء عن المسيح وهو الذي حلّ في العذراء فولدت ابنها[24]. ومع هذا فهو أحيانًا يدمج بين الابن والروح، ولكنّه يعود دائمًا إلى الكتاب المقدّس للدفاع عن التعليم الصحيح.

أمّا ثيوفيلوس الأنطاكيّ، فعقيدته مشابهةٌ لعقيدة يوستينوس، ولكن مع اختيارٍ أكثر دقّة في التعابير. وهو أوّل مَن استعملَ كلمة ثالوث "Triav"[25].

أثيناغوراس الأثينيّ كتب عن الثالوث في النصف الثاني من القرن الثاني بطريقةٍ أوضح من طريقة يوستينوس، وقد اعتبر أنّ الابن هو مِن نتاج الآب وأنّ الله احتواه منذ البدء، أمّا الروح القدس الذي يتكلّم في الأنبياء فهو فيضٌ من الله يشعُّ عنه ويعود إليه كشعاع الشمس[26].

إيريناوس أسقف ليون لم يبحث في علاقة الأقانيم الثلاثة، إلّا أنّه كان واثقًا من وجودهم قبل الدهور ولا سيّما قبل الخلق، لأنّ العبارة "فلنصنع الإنسان على صورتنا ومثالنا" كانت قد وُجِّهت من الآب إلى الابن والروح

[22] رستم. ص. 81.

[23] المرجع نفسه. ص. 81.

[24] رحمه، الأب جورج. يوستينوس الروماني وأثيناغوراس الأثيني. موسوعة عظماء المسيحية في التاريخ – 3. منشورات المركز الرعوي للأبحاث والدراسات. 1992. ص. 67-87.

[25] Jackson. ص. 161. إنظر أيضاً رستم. ص. 96.

[26] رستم. ص. 92-93.

القدس، "يدَي الآب" على حدّ تعبير إيريناوس. وهو يؤكّد أنّ الإنسان لا يستطيع أن يبيّن كيفيّة علاقة الابن بالآب، إنّما الآب والابن فقط يعلمان ذلك، ومَن يحاول وصف هذه العلاقة يحاول وصف أمورٍ لا توصَف[27].

والواقع أنّه كان هناك فرقٌ بين الشرق والغرب من ناحية الاهتمامات. فالشرق اهتمّ باللاهوت بينما اهتمّ الغرب بالتنظيم. وهذا ما يَظهر في مقاربة كلٍّ من المجموعتين لموضوع الثالوث[28]. وفي الشرق تقدّمت المدرسة الإسكندريّة على الأنطاكيّة، بخاصّةٍ مع وجود أوريجنّس.

نشأت بدعة المونارخيّين التي قال بعض أتباعها إنّه ليس في الثالوث سوى مظاهر مختلفة للإله الواحد. وقد ردّ أوريجنّس على هذه البدعة، وعلّم أنّ هناك إلهين بقدرةٍ واحدة، وهو ما عُبِّر عنه في القرن الرابع بأقنومَين وجوهرٍ واحد[29]. والثالوث ليس مظاهرَ مختلفةً لإله واحد، فالابن انبثق من الآب انبثاق الإرادة من العقل. وكون الله أزليًّا أبديًّا، هذا الانبثاق أزليٌّ أبديٌّ أيضًا، وبالتالي لا بداية للابن. وعلاقته بالآب هي الوحدة في الجوهر. وصار أوريجنّس يستعمل عبارة "omoousio". ولكنّ الخطأ الذي يراه الدارس للاهوتِ أوريجنّس هو في اعتباره تدرُّجًا في الثالوث، ويظهر هذا في تعليقه على يو 14:28 :"أمّا نحن الذين نُصدّق المخلّص حين قال "إنّ الآب الذي أرسلني هو أعظم منّي" نعترف بأنّ المخلّص والروح القدس أعظم من كلّ الأشياء التي صُنعت، ولكننا نعترف بأنّ الآب أعظم منها بقدر ما هما أعظم من المخلوقات"[30].

ومن الكتابات المهمّة في إظهار الإيمان بالثالوث هو الإكثيسس أو دستور الإيمان الذي أعدّه القدّيس غريغوريوس العجائبيّ أسقف قيصريّة الجديدة وتلميذ أوريجنّس:

"يوجد إلهٌ واحدٌ أبو الكلمة الحيّ حكمته المستمرّة وقدرته وصورته الدائمة: والدٌ كاملٌ لمولودٍ كاملٍ وأبو الابن الوحيد. ويوجد سيّدٌ واحد، واحدٌ من واحد، إلهٌ من اله، صورة الإله ومثاله وكلمته القدير وحكمته واعي جميع الأمور وخالق كلّ المخلوقات، ابنٌ حقيقيٌّ من أبٍ حقيقيّ، غير منظورٍ من غير منظور، وغير فاسدٍ من غير فاسد، حيٌّ من حيّ وخالدٌ من خالد. ويوجد روحُ قدسٍ واحدٌ مستمَدٌّ من الله ظاهرٌ بالابن

[27] المرجع نفسه. ص. 111.

[28] Jackson. ص. 167.

[29] رستم. ص. 140.

[30] المرجع نفسه. ص. 143.

ليُعلم الخليقة، صورة الابن، صورةٌ كاملةٌ لكامل. هو الحياة وسبب وجود الأحياء. ينبوعٌ مقدّس، قداسةٌ تعطي القداسة وتقود إليها. فيه يتجلّى الله الآب الذي هو فوق الجميع وفي الجميع، وفيه يتجلّى الله الابن الذي في الجميع. ثالوثٌ كاملٌ في المجد والخُلود والسيادة غير منقسمٍ أو منفصل. وهكذا فإنّه ليس في الثالوث أيُّ شيءٍ مخلوق أو مستعبَد أو أيُّ شيءٍ مرّ زمنٌ ولم يكن الابنُ بحاجةٍ إلى الآب أو الروح إلى الابن. والثالوث باقٍ الى الأبد دون اختلافٍ أو تغيير"[31].

وقد كتب غريغوريوس هذا الدستور لحاجة التبشير والتعميد، ولهذا فلغته مباشرةٌ وواضحة، والكثير من التعابير هي نفسها تبنّتها المجامع التي أقرّت العقائد المتعلّقة بأقانيم الثالوث، والتي لم نزل نستعملها حتّى اليوم.

أمّا في الغرب، فنقرأ عند هيبّوليتوس في وصفه لممارسة سرّ المعموديّة، أنّ هذا السرّ أُقيمَ بحسب وصيّة الربّ في متّى 19:28[32]. تعابير النصّ الذي يورده أسد رستم في كتابه تشبه الى حدٍّ كبيرٍ تعابير قانون الإيمان النيقاويّ.

ولكن هذا ليس كلّ شيء لدى هيبّوليتوس، إذ إنّه فرّقَ بين الكلمة الكامن في الله والكلمة الملفوظ، وحكى عن شيءٍ من التدرُّج في الثالوث[33].

أمّا نواتيانوس، وهو من الغربيّين أيضًا، فقد كتبَ مؤلّفًا كبيرًا باللاتينيّة عرضَ فيه عقيدة الثالوث الأقدس دون أن يستعمل اللفظ Trinitas. وقد تلافى استعمال هذا اللفظ لشدّة اهتمامه بوحدة الله. وقد ماشى ثيوفيلوس وإيريناوس وهيبّوليتوس في نظرتهم التدرُّجيّة للثالوث، ورأى أنّ المسيح كان دائمًا خاضعًا لله، معتبرًا إيّاه الملاك صاحب المشورة العُظمى والرسول. وكذلك الروح القدس كان أقلّ من الابن، والمؤمنون يتسلّمونه من المسيح الذي تسلّمَهُ عند المعموديّة، ويولدون به ثانيةً بالمعموديّة. وهذا الروح هو الذي عمل في الأنبياء بصورةٍ مؤقّتة، وهو يعمل في الرسل بشكلٍ دائم، وهو يحفظ الكنيسة[34].

[31] المرجع نفسه. ص. 155.

[32] في مكان سابق من النص.

[33] رستم. ص. 177-178.

[34] المرجع نفسه. ص. 182-183.

أيضاً من الغربيّين الذين لمعوا في إفريقيا هو ترتليانوس. فقد قال إنّ العقيدة هي دستورٌ وشريعةٌ مفادها الإيمان بإلهٍ واحدٍ كلّيّ القدرة خالق الكون، وبابنه يسوع المسيح المولود من العذراء الذي صُلِبَ في عهد بيلاطس البنطيّ وقام في اليوم الثالث، وقُبِلَ في السماء جالسًا عن يمين الآب، والذي سيأتي ليدين الأحياء والأموات بقيامة الجسد. وبعد جلوس الابن عن يمين الآب، أرسلَ الروح القدس ليقود المؤمنين. وقد كان ترتليانوس سبّاقًا بين الغربيّين في استعمال عبارة الثالوث باللاتينيّة Trinitas، وعبّرَ بوضوحٍ عن الثالوث إذ قال إنّ الابن هو من جوهر الآب، والروح القدس هو من الآب بالابن. وقد استعمل كلمة Personna للدلالة على الأقنوم، وذلك للتمييز وليس للتفريق. انتقد اليهود في اعتبارهم أنّ الله كان يُحدّث الملائكة في قوله "لنصنع الإنسان على صورتنا ومثالنا"، إذ إنّه اعتبر أنّ هذه الآية هي إشارةٌ إلى ثالوثيّة الله منذ الأزل. ومع هذا كلّه، فقد تكلّم عن التدرُّج في الثالوث، واعتبر أنّ الله هو الجوهر كاملاً أمّا الابن فهو انبثاقٌ من الكلّ[35].

لكتنتيوس من الغربيّين أنكرَ وجود الروح القدس كأقنومٍ ثالث، وربطه تارةً بالآب وتارةً بالابن[36].

خاتمة

ختاماً للبحث، يمكننا القول إنّ كنيسة القرون الأولى حفظت الإيمان الذي تسلّمَتْهُ وتمكّنتْ من تسليمه، بالرغم من كلّ الأخطاء التي عرضناها والتي نستطيع أن نراها لا كأخطاء بل كقصورٍ عن بلوغ المعرفة التي توصّل إليها الآباء الذين صاغوا هذه العقيدة لاحقًا في المجامع. أسباب هذا القصور متعدّدةٌ أهمّها أنّ المشكلات التي تتعلّق بأقنومَي الابن والروح القدس لم تكن قد طُرحت بعد بالحدّة عينها التي استدعت انعقاد المجامع. وما التطوّر الذي تمّ بين نشوء الكنيسة والقرن الرابع، اي انعقاد المجامع المسكونيّة التي فيها تمّ التعبير عن هذه العقيدة بالشكل الذي لم يزل معمولاً به حتّى اليوم، إلّا تطوّرٌ بالشكل والتعبير وليس بالمضمون والخبرة. فالروح القدس هو نفسه العامل في الآباء كلّهم في الأزمنة كلّها، والخبرة الإلهيّة التي تتمحور حولها الحياة المسيحيّة في كلّ الأوقات هي نفسها.

[35] المرجع نفسه. ص. 190-191.

[36] المرجع نفسه. ص. 204.